الفصل الثاني

كلثوم نصر عودة فاسيليفا

(١٨٩٢-١٩٦٥) (*)

أسمهان شريح

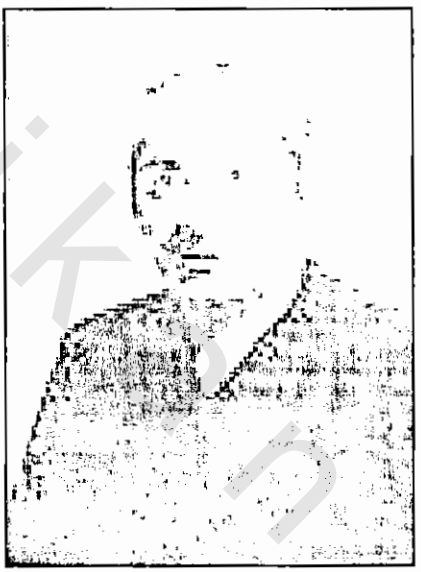

وترى أن بلادًا تبني مجد بلاد .

بلاد مهاجرة، و سُمرٌ من مشرق الشمس، ومغربها العربي، يسعون في تلك المدن البعيدة، بحثًا عن عيش، قد يكون مرًا، في غالب الأحيان .

مبعدون، وعمال، ومثقفون، وطلبة، أتوا من كل جهات الفقر، والقمع،

(*) حين عهد إلى بإنجاز هذه الدراسة، وجدت صعوبة في القيام بها، بسبب قلة المراجع المتوفرة عن شخصية السيدة عودة، ولكن بفضل معونة وتشجيع الأستاذ عبد القادر ياسين، تم التغلب على هذه الصعوبات، فشكرًا له، لتفضله بتزويدي بمعظم المراجع اللازمة .

والتخلف، بعد أن صعبت عليهم أحوال الحياة. أتوا إلى هذه المدن لتحصيل عيش، أو معرفة، أو بحثًا عن فضاء للحرية، والتعبير يبقى، دائمًا، مشحونًا بالالتباس .

أحمد الزين

فلسطينية الآلام، والآمال، والهمّ؛ فلسطينية الوشم؛ امرأة هي من هذا الوطن، المبعثر بين المشرق، والمغيب، وطن النهار، والآلهة، والشمس، والإنسان القديم، والشعارات، التي تعجز، حتى آلهة الحكمة، عن فك طلاسمها، فما بالك بالأُميّين؟ وهم كُثُر!

أصل الحكاية

ولدت كلثوم نصر عودة، في مدينة الناصرة، سنة١٨٩٢، ولأنها البنت الخامسة لأبويها، فقداستُقبل مجيئها بالدموع، على ما تذكره هي نفسها، في مقالة كتبتها لشهرية «الهلال»، القاهرية، ١٩٢٧، ونالت عليها جائزة عن أفضل ما كُتب في السيرة الشخصية. إلا أنها في مقالة للمجلة نفسها[١]، ابتدأتها بترجمة نفسها، على أنها من القدس! في حين أكد أقاربها[٢]،أنها من الناصرة، تأكيدًا لجميع المراجع التي كتبت عنها.

بدت عليها إمارات الذكاء، والنبوغ، منذ سني طفولتها المبكّرة، وقد تلقت تعليمها في مدرسة السيمنار الروسية، في بيت جالا، التابعة لجمعية الصداقة الروسية- الفلسطينية، التي رعتها كنيسة الروم الأرثوذكس، في القدس، وبذلت عودة كل ما في وسعها من أجل التفوق، لأن نظام المدرسة، قبل الحرب العالمية

(١)المجمّع العلمي العربي، (دمشق) جـ٧، م٨، تموز / يوليو ١٩٢٨، ص٤٤٤ .

(٢)السيد/ إبراهيم عودة، وحرمه السيدة/ لورا معلوف، في مقابلة أجريت معهما في منزلهما، في دمشق، بتاريخ ٣ نسيان / ابريل ١٩٩٦ .

الأولى(١٩١٤-١٩١٨)، كان يقضي بتعيين الأوائل في المدرسة، معلمات، وقد وضعت عودة هذا الهدف نصب عينيها، وتم لها ذلك، بالفعل، فتخرجت بتفوق باهر، سنة١٩٠٧، وبعد تخرجها، عملت في مدارس «جمعية الصداقة الروسية-الفلسطينية»، والمؤسسات التابعة لها.

اتسم عملها بالنشاط، والإخلاص، والتفاني، فبثَّت في نفوس تلميذاتها روح المحبَّة، ومبادئ الإخلاص القويمة، وغرست فيهن حب العمل، وروح التعاون، وبذلك اكتسبت محبتهن، وتقديرهن. في سنة١٩١٤ تزوجت من الطبيب الروسي، فاسيليف، ومنه اكتسبت كنيتها الأخيرة، فاسيليفا.

عارض والدها هذا الزواج، بشدة، ورفض حضور مراسمه، فاقتصرت هذه المراسم على أولاد عمومتها، وأقاربها، لأن والدها اعتبر هذا الزواج غير متكافئ، بسبب تفوق السيد فاسيليف على ابنته كلثوم، وسامة، وعلمًا، متخوفًا الوالد من نظرة المجتمع، التي تعتبر هكذا ارتباط، ناتج عن علاقة حب عابرة، أو نزوة، وبالتالي لن يلبث فاسيليف أن يتركها، عائدًا إلى بلاده، لكن عودة تمكنت، فيما بعد، من إقناع والدها ومصالحته، قبل أن تسافر إلى روسيا، بصحبة زوجها.

الحياة الثقافية في فلسطين، آنذاك، كانت حقيقة واقعة، وليس أدلّ على ذلك، من الرسالة التي بعث بها سليم سركيس(*)، بعد زيارته للقدس(١٩٢٠)، إلى أديب فلسطيني معروف، قائلًا فيها:

«...وقد سرني من القدس الشريف أن فيها[1] (جامعة للأدباء)، لم أوفق إلى مثلها

(*) سليم سركيس (١٨٦٧-١٩٢٦):أديب وصحافي لبناني، عاش في مصر، وأنشأ جريدة «رجع الصدى»، ومجلة«سركيس». من مؤلفاته «سر مملكة» في أخبار بني عثمان.
المنجد في الأعلام، بيروت، دار المشرق، ط ١٠، ١٩٨٠، ص ٣٥٤.

(١)د/ عبد الرحمن ياغي، حياة الأدب الفلسطيني الحديث، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨١، ص٩٩ .

في دمشق، أو حيفا؛ فقد قضيت نحو أربعين يومًا في عاصمة المملكة السورية، وقابلت فيها عددًا كبيرًا من الأدباء، ولكن شملهم متفرق، فلا يجتمعون في مكان معين، أو زمان، شأننا في مصر، وأما في القدس فإن ليوث الأدب يأوون إلى عرين خاص، يهيبه من لم يكن في طبقتهم، وهذا التهيُّب والوقار يساعدانهم على العزلة، ويبعدانهم عن الغوغاء، وقد بلغ من إعجابي بمجلسكم في القدس، أنني كنت-كما تعلم-أول من حضر، وآخر من انصرف، حتى لا يفوتني جمال مجلسكم، وفائدته. ولو أن من يحذو حذوي بينكم في مجالس أدباء مصر، لاجتمع لديه الشيء الكثير من ثمرات العقول التي تليق، يومًا، أن تكون حديث المجالس، لأنك تنال من الأدباء، وقد أرسلوا على سجيتهم، ما لا تناله من ثمرات العقول، إذا هم تأنقوا في الحديث، وتأهبوا له. فهنيئًا لكم، ولمجلسكم بكثير من الحسنات، وفي مقدمها(مجلس الأدباء)».

فما هو المقصود بعبارة«فلسطين»، في تلك المرحلة؟

كانت فلسطين، آنذاك، موضوع الدراسة[1]، خاضعة للاحتلال العثماني، منذ١٥١٧، ولم تكن تشكل وحدة مستقلة، عن جوارها، وقسمت إلى ثلاثة ألوية، أو متصرفيات، هي: متصرفية القدس، وتشمل جنوب فلسطين، خمسة أقضية، أوقائم مقاميات، هي، القدس، يافا، الخليل، غزة، وبئرالسبع، وتقع المتصرفية الأولى تحت إشراف الحكومة المركزية، في الآستانة، بسبب مكانة القدس الدينية، والتاريخية. ومتصرفية نابلس، وتضم قضائي:جنين، وطولكرم، ومتصرفية عكا، وتضم أقضية: حيفا، والناصرة، وطبرية، وصفد، وتتبع المتصرفيتان الأخيرتان ولاية بيروت.

(١)اعتمدت، أساسا، في هذه الفقره، على د/ خيريه قاسيمه، روحي الخالدي، الكاتب الفلسطيني، (دمشق)العدد ٢٦ / ٢٧، صيف / خريف ١٩٩٤، تموز / يوليو، آب / أغسطس، أيلول / سبتمبر، تشرين الأول/ أكتوبر، تشرين ٢ / نوفمبر، كانون الأول / ديسمبر، ص١٠٠ -١٣٤ .

رغم هذه التقسيمات الإدارية، وباعتبار ما كانت علية فلسطين، جزءًا من سوريا-المنطقة التي كان يطلق عليها، آنذاك، جغرافيًا، «بلاد الشام»-فثمة مفهوم عربي جغرافي لمنطقة فلسطين، تعود جذوره إلى عوامل دينية، ترتبط بمفهوم «الأراضي المقدسة»؛ ثم إلى عوامل تاريخية، متعلقة بالتطور الإداري، الذي شهدته المنطقة، إلا أن مفهوم فلسطين، كمنطقة جغرافية محددة المعالم، لم يتضح، فعليًا، إلا بدخول الصهيونية، مطلع القرن العشرين، الأمر الذي دفع بمختلف مناطق فلسطين، لاتخاذ موقف موحد منها.

حظيت فلسطين بمكانة خاصة لدى العثمانيين، نظرًا لموقعها المتوسط، بين المناطق الخاضعة للنفوذ العثماني من جهة، ولوجود الأماكن المقدسة فيها، من جهة أخرى، مما أدى-لاحقًا- إلى اهتمام الدول الكبرى بها، وسعيها إلى بسط نفوذها، السياسي، والديني، والثقافي عليها. وتجلى ذلك بإيفاد الإرساليات التبشيرية، التي أقامت مؤسساتها الثقافية، والدينية، والاجتماعية فيها، وأبرزها، المدارس وما في حكمها، من مؤسسات تعليمية.

التعليم[1]

بدأت تشكيلات المدارس بالاستقرار، منذ منتصف القرن التاسع عشر؛ فالمرحلة الابتدائية، ومدتها ثلاث سنوات، والمرحلة الرشدية ثلاث سنوات أخرى، فيما تراوحت مدة الدراسة، في المرحلة الإعدادية، بين خمس وسبع سنوات، لاندماج الرشدية فيها. كما قامت مدارس صناعية، وزراعية، ومدارس عالية للطب، والحقوق، ثم أحدثت المدرسة الشاهانية، لدراسة الإدارة والسياسة، ومدرسة القضاة، والتجارة العليا، والزراعة العليا، ودار المعلمين، والبيطرة، والهندسة،

(١)اعتمدت، أساسًا في هذه الفقرة على: ياغى، مصدر سبق ذكره، ص ٩٦ -٩٨ .

والصنائع النفيسة(أي الفنون الجميلة).

تطور التعليم، بصدور دستور(١٩٠٨)، وأُدمجت المدارس الرشدية بالابتدائية، فأصبحت أولى، ومتوسطة ، وعليا. ثم أحدثت المدارس السلطانية، وكانت مدة الدراسة فيها اثنتا عشرة سنة؛ الخمس الأولى منها ابتدائية؛ وقامت دور المعلمين على أسس جديدة. كما أحدثت جامعة «دار الفنون»؛ وشملت مدرسة الحقوق القديمة، أضيفت إليها كلية للعلوم وأخرى للآداب، وثالثة للإلهيات؛ وافتتحت المدارس العالية، في مراكز بعض الولايات المهمة. كما حدث تغير شامل في المدارس، ونظم التعليم، وازداد الاهتمام بمدارس البنات، وفتحت الجامعة أبوابها لهن.

عنيت وزارة المعارف العثمانية بالنظم الفرنسية؛ واهتمت، بصورة خاصة، بنشر اللغة الفرنسية، فجعلتها في جميع المدارس الرشدية، والإعدادية، وكثير من المدارس العالية، وأصبحت بذلك أكثر اللغات انتشارًا في أنحاء الدولة العثمانية. فيما أولت المدرسة الحربية اهتمامها للغة الألمانية، والمدرسة البحرية للغة الإنجليزية، لكن اللغة الفرنسية حافظت على مكانتها، أيضًا، في هاتين المدرستين.

فيما يتصل بالطوائف الدينية الأخرى، من غير المسلمين، فقد فتحت امتيازات خاصة، وكانت لها مجالسها التي تشرف على الشئون الكنسية والأديرة؛ واعتبرت الدولة العثمانية شؤون التعليم من الأمور المرتبطة بالشئون الدينية، فأناطت بجميع الطوائف المسيحية، واليهودية، حق تأسيس المدارس، وإدارتها، وشملت هذه الامتيازات، فيما شملته، لغة التعليم، حيث علّم العرب المسيحيون في مدارسهم اللغة العربية، بينما كانت المدارس الرسمية تعلِّم اللغة التركية؛ وعلَّمت مدارس الإرساليات الأجنبية باللغة العربية، إلى جانب لغة بلاد تلك الإرساليات.

احتشدت معظم أنماط هذه المدارس في القدس، وبقيت محافظة على إطارها العام، باستثناء بعض التطورات الطفيفة، الناتجة عن تطور الظروف السياسية،

والإدارية، التي شهدتها الولايات العثمانية، في فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى.

في تلك المرحلة، نشطت الجمعيات، والنوادي الأدبية، والمجالس الخاصة، وحلقات الأدب، فاعتنت بتعزيز اللغة العربية، وشجعت فن الخطابة، كما نظرت في إصلاح المجتمعات الأدبية، ونشرت الأبحاث المطبوعة، التي تناولت مختلف الشئون الفلسطينية، التاريخية، والثقافية، والعلمية، واهتمت بالتعليم، ونشر الكتب الأدبية، كما دعت الأدباء من الخارج، للمساهمة بإثراء الحركة الثقافية. وحتى النوادي المختلفة، والنوادي الرياضية، والجمعيات التعاونية في القرى، قد أدلت بدلوها في الحركة الثقافية، وكان الأدب ضمن أبرز اهتماماتها.

أما الصحافة[1]، التي دخلت إلى فلسطين متأخرة، مقارنة بغيرها من بلاد الشام، فكانت صحيفة«القدس الشريف»، الناطقة باسم المتصرفية، أول صحيفة صدرت، وذلك في العام ١٨٧٦، (عام صدور الدستور الأول).وبعد صدور الدستور١٩٠٨، ونتيجة للإصلاحات، التي أعقبته، شهدت الصحافة تطورًا متلاحقًا، عبر عن نفسه، بصدور الكثير من الصحف التي بلغ عددها، حتى نهاية العهد العثماني، ما يقرب من ثلاثين صحيفة، اقتصرت على مدن القدس، ويافا، وحيفا، منها «الكرمل» (حيفا ١٩٠٨)، «فلسطين» (يافا ١٩١١) و «المنادي» (القدس) ١٩١٢).

تمتعت هذه الصحف بالجرأة السياسية، وصدرت عن وعي عميق، متفهم لأوضاع البلاد، فانتقدت سياسة الحكومة العثمانية، ونبهت إلى خطر الاستيطان الصهيوني، وتبعاته، وقد تأثر أسلوب الكتابة الصحفية في فلسطين، بأدب الصحافة في مصر، وبلاد الشام، التي سبقت نظيرتها في فلسطين في حل مشكلات اللغة، والأسلوب، والمصطلحات، وأسهم الأدباء بالكتابة في الصحف، فرفعوا

(١)قاسميه، مصدر سبق ذكره .

مستواها، وحسّنوا أسلوب أدائها .

واكب الأدب التيارات الجديدة، في السياسة[1]، والمجتمع، فتحولت أغراضه إلى موضوعات الحرية، والدستور، والاستعمار، والخطر الصهيوني، والإحساس بالكيان القومي، إضافة إلى موضوعات، العلم، والعمل، وشؤون المجتمع، ودور الشعوب، والحكومات في علاقات الأمم، والطبقات والبناء الاجتماعي، وصلة اللغة بحياة الناس، وأهمية التعليم، والتقاليد ، والأوهام، والحرب، والسلم، والسياسة، التي كانت من أبرز الموضوعات، التي ركز الأدباء والشعراء، والكتاب اهتمامهم بها، في تلك المرحلة، فكانت من أبرز كتابها : إسعاف النشاشيبي، خليل السكاكيني، خليل بيدس، اسكندر الخوري البيتجالي، الشيخ سليمان التاجي الفاروقي، واللاهوتي جرجس توما .

كما أسهم مفكرو فلسطين في العمل السياسي، بمختلف تياراته، التي عمت أوساط المثقفين، داعين إلى يقظة العرب، والانعتاق من الاستبداد، والتغني بإيجاد العرب، وقدموا أفكارهم بأسلوب شيِّق .

لقد عرفت فلسطين، في وقت مبكر، العديد من اللغات الأجنبية، بسبب انتشار مدارس الإرساليات الأجنبية، التي اهتمت بنشر لغات بلدانها، فابتدأت حركة الترجمة في مطابع الأديرة، وترجمت عن اليونانية، واللاتينية، والتركية، والفرنسية، والايطالية، والأسبانية، والألمانية، والعبرية، واقتصرت على الكتب، والموضوعات الدينية . كما اتسم أسلوبها بالركاكة في التعبير[2]، و الأخطاء اللغوية، والإملائية، إلا أن جيلاً جديدًا، كان قد تعلم في المدارس الأجنبية، وأتقن لغاتها، ما لبث أن ظهر، حاملاً تباشير نهضة حقيقية في هذا المجال، انتقلت معه الترجمة إلى

(١)المصدر نفسه.

(٢)المصدر نفسه.

طور جديد، فتنوعت موضوعاتها، وتناولت الآداب والعلوم، وكان من أبرز رواد هذه المرحلة : الأستاذ خليل بيدس، الذى ترجم الكثير من الكتب عن اللغة الروسية، وفي مختلف الموضوعات، كما فتح أبواب مجلته « النفائس العصرية » للمواهب الشابة، أمثال أنطوان بلاّن، وكلثوم عوده .

في خضم هذا المحيط الأدبي الثري، والجو الثقافي الصحي، النقي، الذي شهد نهضة ثقافية حقيقية، نشأت كلثوم عودة، فخاضت في هذا المحيط، مبحرة، باحثة عن اللآلئ، متنسمة عبير الأدب، بكل أرجه، وجمالياته، فعشقت الأدب، وتفاعلت مع اللغة الروسية، التي تعلمتها، فعملت في الترجمة، منذ يناعتها، ولعل في تتبع مسيرة حياتها، في المرحلة التالية، في روسيا، ما يبرهن على صحة هذا التوجة .

حياتها في روسيا

سئل ذات مرة، العالم و المخترع الكبير، توماس أديسون، عن تعريف العبقرية، فأجاب : « العبقرية ٢٪ إلهام و ٩٨٪عرق» ! ولعل في هذا القول ما ينطبق، تماما، على مسيرة حياة السيدة عودة فاسيليفا، بعد زواجها، ورحيلها إلى روسيا، منذ١٩١٤.

بعد استقرارها في روسيا، بمدة وجيزة، تعلمت مهنة التمريض، وعملت فيها، في فتره الحرب العالمية الأولى، في الصرب، والجبل الأسود، بعد هزيمة الجيش الروسي هناك، هربت إلى فرنسا، عبر ألمانيا، ثم عادت إلى روسيا، حيث توفي زوجها، تاركًا لها ثلاث بنات صغيرات. وبعد ثورة أكتوبر الإشتراكية في روسيا (١٩١٧)، منحت قطعه من الأرض، وعملت فيها مزارعة، إلى جانب الفلاحين، تقاسمهم همومهم، وشقاءهم، لكن طبيعتها الميالة إلى التفاعل، ودناميكيتها العالمية، جعلتها لا تكتفي بالعمل الزراعي، بل أخذت بتعليم أبناء الفلاحين،

وبناتهم، ونشر الوعي بين نسائهم، وإلقاء المحاضرات على الفلاحين، باثّة فيهم التعاون، و الصبر على المكاره، ومواجهه الصعاب من أجل تحسين ظروف حياتهم .

تمثلت المرحلة التالية في تعيينها مساعدة مدرِّسة في الكلية الشرقية[1] بموسكو، ثم أستاذة، في لينغراد، منذ ١٩٢٤، ومنذ ذلك الحين، عملت عودة في التدريس، والترجمة، والتأليف، وعرفت بالأستاذة عودة فاسيليفا .

أخذت تُعنى بدأب وحرص شديدين، بتتبع، وجمع، مختلف الأخبار الأدبية، والنشاطات التي ترافقها، الواردة من الأقطار العربية، وفي سنة ١٩٦٢، أهدتها الحكومة السوفييتية « وسام الفخر »، اعترافًا بفضلها في نشر الأدب العربي، كما أحرزت « الميدالية الذهبية »، مرتين، على جهودها في مسابقة لأحسن ما كتب في السيرة الشخصية[2] .

توفيت في ٢٤/ ١١/ ١٩٦٥، ودفنت في مقابر العظماء، وعندما سئل قريبها، السيد إبراهيم عودة، عن العبارة التي يرغب بتدوينها على قبرها، أجاب :«مثل للأحياء يُحتذى ». وتم له ذلك، فعلاً.

منحت «منظمة التحرير الفلسطينية» اسم كلثوم «وسام القدس » للثقافة و الفنون، في كانون الثانى / يناير ١٩٩٠، تقديرًا لجهودها[3] .

اتِّقاد مستمر، بتوهج خلاّق، مالبث أن أطفأ هذه الشعلة، التي لم تبق لحظة من حياتها، دون بذل أو عطاء .

وإذا كانت النفوس كبارًا تعبت في مرادها الأجسام

(١)أحمد عمر شاهين، موسوعة أدباء وكتاب فلسطين في القرن العشرين، دمشق، م.ت.ف.، دائرة الثقافة ١٩٩٢ ، ص٣٧١- ٣٧٢ .

(٢)المصدر نفسه.

(٣)إبراهيم عوده وحرمه، مصدر سبق ذكره.

شخصيتها

كنا لا نزال طلابًا في السنة الأولى، عندما طرح علينا سؤال، بدا عاديًا، لكنه يحتاج إلى إجابة فذَّة، والسؤال : لماذا يتبخر الماء من وعاء، رغم إقصائه عن العوامل المؤدية للتبخُّر ؟ أما الجواب، فكان، وببساطة، يقضي بوجود ذرَّة، خارقة، لها قدرات خلاقة، كما وصفها الأستاذ في معرض إجابته، بعد عجزنا عن التوصل للإجابة الصحيحة، هذه الذرَّة، تتمتع بحيوية فائقة، وقدرة غير عادية على الحركة، لم تلبث أن جعلتها تتحلل من ارتباطها بباقي الذرَّات، فوصلت إلى السطح، وغادرته، مفسحه المجال لغيرها من الذرّات، للِّحاق بها .

لعلها من المفارقات، شدة الشبه بين هذه الذرَّات وشخصيه كلثوم عوده. إذا تأملت في صورتها، متفرسًا ملامحها، تلحظ نظرة ثاقبة، ممتدة إلى آفاق لانهائية، لكنها لا تخلو من احتجاج على تسرب العمر، كما الرمل من بين الأصابع، وكأنها تردد مع مونتاين :«إنني أقول الحقيقة، ليس كما أريد، بل بمقدار ما أجرؤ، وإنني أجرؤ أكثر، كلما تقدم بي السن ».

سمراء، ناحلة، قصيرة القامة، نسبيًا، مع جمال متواضع، يشي بالزهد، والتعفف، جعل أمها تعيِّرها بالقول : « مين ياخدك يا سودة »، مما أورثها مركّب نقص، دفعها لترمي بكل ثقلها في مجال الدرس، والتحصيل العلمي، خوفًا من التهديد، الذي هال عقلها الصغير، بأن يكون مصيرها خادمة، في بيت أخيها، كما حصل لعمتها من قبل[1] .

سيدة عظيمة، وكتلة من الإحساس و العاطفة، استحوذت على احترام كل من

(١)كلثوم عودة، كيف يعيش المرء هنيئا في هذه الحياة، الهلال (القاهرة)، عدد تموز / يوليو ١٩٢٧، السنة ٣٥، ص١٣٣-١٣٦ .

عرفها، ذائعة الصيت، لدى محبي الأدب والثقافة، و المهتمين بهما؛ محبوبة، معطاءة، مخلصة لعملها، والمحيطين بها، اعترفت، مرارًا، بفضل أستاذها كراتشكوفسكي، ووثّقت ذلك بكتاب حمل اسم :«ذكرياتي مع العلاّمة المستعرب كراتشكوفسكى »(*).

محبة للجمال، باختلاف ألوانه، ومشاربه، سواء كان طبيعيًا، أم من صنع الإنسان، متذوقة للأدب والفن، ولديها إحساس عال بجمالياتهما، حيث أجمع النقّاد، الذين اطّلعوا على آثارها في التأليف، والترجمة، والاختيار، على أن هذه الآثار، تنم عن ذوق رفيع، كما كان النشاط، والانكباب على العمل. ومن أبرز مزاياها، الحس الإنساني، و الوطني، الذي بقى يلازمها، رغم سني غربتها الطويلة، وبقى وضع شقيقتها، المرأة العربية، وبؤس أوضاعها، هاجسا يؤرِّقها، فصورته في كتاب «تصوير واقع المرأة العربية في القصة »(١).

أُخِذَ عليها نظرة الإقليمية، لأنها لم تأت على ذكر بقية الأدباء العرب، «... رغم أنه يوجد في العراق، وغيره من البلدان العربية من حملة اليراع، وأرباب القريظ ، من هم في الطبقة الأولى، فكيف نسيت ذلك السيدة كلثوم ؟» (٢).

تبقى نقطة، لابد من إثارتها، ولعله تساؤل مشروع، عن السبب الذي جعل السيدة كلثوم عودة تشيح بوجهها عن الوضع السياسي، لوطنها، خاصة بعد التطورات الدراماتيكية، التي شهدها، سيما أن عودة على اطلاع مباشر على تلك

(*) كراتشوفسكي(١٨٨٣-١٩٥١):أستاذ الأدب العربي في الكلية الشرقية، في لينينجراد، وهو مستشرق روسي، يُعد من أوسع علماء عصره بمعرفة الآداب العربية، قديمها وحديثها.
- المنجد في الأعلام، مصدر سبق ذكره، ص٥٨٥.

(١)إبراهيم عوده، وحرمه، مصدر سبق ذكره .

(٢)المنتخبات العصرية لدرس الآداب العربية، لغة العرب (بغداد) جـ٥، سنة ٦، أيار / مايو ١٩٢٨، ص٣٨٢.

التطورات، من خلال اهتمامها بالأدب، الذي خصّت الأدب الفلسطيني - إن صح التعبير - بحيزٍ مهم منه .

آثارها

كما عبّر أحد الشعراء : فالبياض يدل على شيئين : بياض الثلج، الذى يعني النظافة، الطهارة الأولى، عندما يسير الإنسان على الثلج، فإنه يترك آثار قدميه، هذه الآثار، هي نوع من الكتابة .

النمط الثاني للبياض هو العدم !

ماهو التحدي الذي يفرضه العدم ؟

إنه التحدي نفسه الذي واجهه الإله، قبل بدء الخليقة .

كيف رد الخالق على هذا العدم ؟ أو هذا البياض ؟ بالصنع، و الخلق، شيء يشبه الكتابة، نوع من إحالة المعدوم إلى موجود.

وعليه، ما هي آثار السيدة عودة ؟

تركت السيدة عودة كثيرًا من الأعمال، تنوّعت في شكلها، ومضمونها .

فتراوحت بين الجمع، والتأليف، والترجمة، وتنوعت موضوعاتها بين الأدب والدراسات اللغوية، والتراجم (السير الذاتية).

ففي مجال الأدب جمعت، وصنّفت، ودرست:

« المنتخبات الأولية » (لينغراد ١٩٦٢)، و « المنتخبات العصرية لدرس الآداب العربية » من ١٨٨٠ إلى ١٩٢٥، في جزأين، الثاني منه « معجم تفسيري » (١٩٢٨) والطبعة الثانية (١٩٤٥)، والثالثة من (١٨٨٠ إلى ١٩٤٧)، طبعت سنة (١٩٤٩)، بمقدمة لكراتشوفسكي، وهو كتاب يدرّس في لندن، ونيويورك، وبرلين، وأوبساله، وهامبورغ، والجزائر .

« نماذج من الكتابة العربية » (١٩٥٥)، « ومنتجات للقراءة في البيت » (١٩٦٥)[١].

وأنجزت دراسات في « الأدب العربي الحديث » (ليننغراد)، و« اللغة المسرحية في الأدب العربي الحديث »، و«دراسات في تاريخ الأدب العربي ».

وترجمت : « حضارة العرب في الأندلس »، بمعاونة آخرين غيرها .

في مجال السير و التراجم : نشرت عودة، «ذكرياتي عن العلامة المستعرب كراتشكوفسكي »، و« توفيق الحكيم الكاتب المصري »، وترجمت « الشيخ محمد عيّاد الطنطاوي » . وفي مجال الدراسات اللغوية أو الأدب المقارن، نجد: بمعاونة غيرها « القاموس العربي »[٢]، «حول تطور تاريخ اللغة في البلدان العربية »[٣]؛ « تعليم اللغة العربية »، و«محادثات بالروسية و العربية »[٤].

إضافة إلى مواضيع متفرِّقة، مثل ترجمة كتاب « حضارة العرب في الأندلس»[٥]،«مختارات من المراسلات الديبلوماسية »[٦].

شغلت السيدة عودة فاسيليفا معظم نقاد وأدباء عصرها، بأخبارها، ونشاطها، فكتبت عنها معظم المجلات والصحف المعروفة، آنذاك، مثل « الهلال » القاهرية، «ولغة العرب » البغدادية، و« الطريق » البيروتية، وقد أجمعت هذه المجلات على أن عودة سيدة فاضلة، أسهمت بنشر اللغة العربية، وآدابها، باستثناء بعض الانتقادات الطفيفة، مثل أن بعض النصوص التي جمعتها، لاتفيد بشيء الأدب

(١)نجيب العقيقي، المستشرقون، الجزء الثالث، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٥.
(٢)المصدر نفسه .
(٣)شاهين، مصدر سبق ذكره .
(٤)العقيقي، مصدر سبق ذكره.
(٥)شاهين، مصدر سبق ذكره.
(٦)العقيقي، مصدر سبق ذكره.

العربي، ودارسيه، فضلاً عن الملاحظات المذكورة عاليه بأنها لم تأت على ذكر بقية أدباء الوطن العربي، وهذه مقتطفات من بعض ما كتب عنها[1].

« سيدة فضلى، رفعت رأس الشرق، بنبوغها، وعبقريتها، وتغلبها على مصاعب الحياة، في أشد مواقف الاضطراب حرجًا، وإرشادها مئات المنكوبين، وحملهم على مقاومة الضيق، والحاجة، بقلب ملأه الاطمئنان، و الاعتماد على النفس... واكتسبت حب الفلاحين، واحترامهم، فقد كانوا يرون فيها حب التضحية، والإقدام على جلائل الأعمال، والإخلاص في الخدمة، دون أن تبغى على ذلك جزاء، أو شكورًا... قامت بأعباء وظيفتها (التدريس)، خير قيام، ووضعت عدة كتب بالعربية، لتدريسها للطلبة الروسيين، من هواة هذه اللغة، وراجت كتبها، رواجًا عظيمًا ».

رأي آخر، بمناسبة احتفال الأوساط الثقافية الفلسطينية (١٩٨٢)، بمناسبة مرور تسعين عاما على ولادة عودة ٢٢:

« ... التي كرست حياتها لدراسة، ونشر المثل العليا التقدمية، و المشرقية، التي تتحلى بها ثقافة الشعب الفلسطيني، وآدابه، وأرست، في وقت مبكر، مداميك راسخة، لصرح الصداقة بين الشعب الفلسطيني والشعوب السوفييتية، الذي يتوّج، الآن (١٩٨٤) بمثل هذه المكانة الرفيعة، من العلاقة، بين الاتحاد السوفييتي وفلسطين ».

من الأدباء، الذين كتبت عنهم عودة، أو ترجمت لهم[2]، أحمد شوقي، توفيق الحكيم، حافظ إبراهيم، محمد ومحمود تيمور، شحاتة عبيد، طه حسين، صلاح

(١)الإخاء (القاهرة)، عدد ٤، سنه ٦، تموز / يوليو ١٩٢٩، ص ٣٦٣.

- الفجر الأدبي (القدس)، عدد ٤٠، كانون الثاني/ يناير ١٩٨٤.

(٢)المجمع العلمي العربي، مصدر سبق ذكره.

عبد الصبور، صلاح جاهين، وغيرهم من مصر، وعبد الرحمن الكواكبي، جمال الدين الأفغاني، أديب اسحق، جرجي زيدان، نجيب الريحاني، جبران خليل جبران، مي زيادة، ولى الدين يكن، من سوريا ولبنان، وتوفيق زياد، غسان كنفاني، محمود درويش، معين بسيسو، فدوى طوقان، وغيرهم من الكتاب الفلسطينيين .

يبقى أن نتساءل، باستغراب، كيف اعتبر النقاد، والكتاب، وفي مقدمتهم الأستاذ نجيب العقيقي، السيدة كلثزم عودة، مستشرقه ؟! وإلام استندوا في إصدار هذا الحكم عليها ؟ .

لأنه، وانطلاقًا من مفهومنا للإستشراق و المستشرقين، نرى أن الاستشراق ظاهرة، ابتكرها الغرب الاستعماري، مدفوعا برغبات محمومة للسيطرة على وطننا العربي، عن طريق معرفة أحوال الشرق، وعادات شعوبه، وعليه فالمستشرق، هو غير شرقي، بالدرجة الأولى، أتى إلى الشرق، وهو يحمل أفكارًا مسبَّقة عن الشرق، ليس أقلها اعتبار الشرق وشعوبه متخلفًا، دونيًا، مقابل تفوق الغرب، والغربيين .

من هنا يمكن نفي صفة الاستشراق، كليًا، عن السيدة عودة، بصفتها ابنة هذا الشرق، تحمل أفكاره، وهمومه، وهواجسه، ودليلنا إلى ذلك، آثارها التي عمدت من خلالها إلى إبراز أصالة الشرق، وقيمه، ومثله العليا، كما عرضت همومه، ومعاناته .

إذن، ومن هذا المنطلق، يمكن تصنيف عمل السيدة عوده تحت عنوان «الأدب المقارن»، وتعتبر رائدة في هذا المجال، فالأدب المقارن، بصفته تاريخ العلاقات الأدبية، كما أكده أساتذة المدرسة الفرنسية الأوائل، هو ما يصنِّف نشاط السيدة عودة، ومجال اهتمامها، فكما لاحظنا، من خلال سيرتها، أنها انطلقت من الترجمة، النتيجة الحتمية لمفهوم التأثُّر، والتأثير، وتبادل الأفكار، والتقنيات، والمقدمة اللازمة للأدب المقارن.